الفصل الثاني
مفهوم اللغة عند علماء اللغة القدامى والمحدثين

إن معرفة مفهوم اللغة والغاية منها عند علماء اللغة قدامى ومحدثين؛ تعد من القضايا الحاسمة في هذا الشأن، لأنها تفصل القول حول أمور كثيرة توصلنا إلي حقيقة اللغة في الواقع الملموس وفي أدمغة البشر، لقد قدم هؤلاء العلماء من خلال عرض تصورهم عن اللغة وتعريفها ومفهومها؛ ما يبين مدى صلتها بالمخ البشري، وارتباطها به، ووجودها القائم علي وجود المخ. فلا لغة بلا مخ، وإن جاز وجود مخ بلا لغة. لذا يجب معرفة مفهوم اللغة عند هؤلاء العلماء. لنجيب عن هذا السؤال: هل أدرك هؤلاء العلماء العلاقة بين اللغة والمخ؟ وما طبيعة هذه العلاقة في رأيهم. لهذا جعلت فصلا خاصا لمعرفة اللغة في أدمغة هؤلاء العلماء كيف تكون؟ وقد جاء الفصل علي عدة محاور هي:

١- المحور الأول: مفهوم اللغة عند القدامى. ابن جني نموذجا

٢ - المحور الثاني: مفهوم اللغة عند العلماء المحدثين، وهم:

أ- ج فندريس. ب- جاك موشلار. ج- ديريك بيكرتون.

د- تيرنس ديكون. هـ راي جاكندوف. و- نعوم تشومسكي.

المحور الأول: مفهوم اللغة عند علماء العربية

نبدأ بإلقاء الضوء علي مفهوم اللغة في عقول علماء العربية القدامى، لأن فهمهم للغة يمثل مرحلة هامة في تاريخ اللغة؛ فما وصلنا إليه من نتائج حديثة في مجال دراسة اللغة لم يأت فجأة؛ بل سبقته دراسات لفهم اللغة، يجب تناولها لنعرف كيف نما مفهوم اللغة عندهم؟ وهل فهموا طبيعة علاقة اللغة بالدماغ؟ كهدف أساسي لدراستنا لرأيهم.

مفهوم اللغة عند ابن جني:

اخترتُ تعريفا للغة لعالم جليل من بين علماء العربية القدامى؛ وذلك لأنني أري أنه أقرب ما يكون إلي الفهم الحقيقي لطبيعة اللغة في تلك المرحلة. وهو العالم العربي الكبير ابن جني الذي قال معرفا اللغة "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن

أغراضهم"[1] فماذا تضمن تعريفه للغة من حقائق تجعلنا نعبأ به؟ لقد حوي مفهومه عدة حقائق هي:

١- أشار إلي الواقع الفيزيائي اللغة؛ أنها أصوات تصدر بصورة تلقائية تمثل طبيعة اللغة.

٢- اللغة خصصت أصواتا تحقق بها التواصل؛ لوجد الصورة نفسها لها في دماغ المتلقي.

٣- الأصوات في أدمغة البشر تخرج حاملة أفكارهم لتحقق لهم "التعبير عن أغراضهم" .

قيمة تعريف ابن جني:

تعريف ابن جني للغة بأنها أصوات تواصلية؛ أصاب كبد الحقيقة من عدة جهات:

أولا: أنها (**أصوات**) فما ليس بصوت لا يعد لغة. حتى ولو حقق التواصل؛ كلغة الإشارة، فكل اللغات عبارة عن أصوات تصدر بصورة غريزية لدى البشر، فلا يكابد المخ التفكر في إنتاجها، لأنها تصدر ضمن عمليات بيولوجية/ حيوية؛ تحدث في أجسادهم للإبقاء علي حياتهم مثل: التنفس أو بلع الطعام. أما الصرخة الموظفة؛ فإن المخ يصدرها بتأثير انفعال ما كالخوف والفرح. ثم يطورها إلي لغة تحقق نشاطا وظيفيا تواصليا بغيره.

ثانيا: اللغة أصوات تتنوع حسب اتفاق الجماعة اللغوية وترتيبهم لها، لكنها تظل أصواتا.

إذن المادة التي صُنعتْ منها اللغات المتعددة واحدة؛ هي الأصوات الغريزية لدى كل البشر، ثم يأتي التنوع والإبداع لدي البشر في قدرتهم علي صنع كل هذه اللغات من هذه الأصوات (المادة الخام للغات كل البشر) وكيفية استخدامها لصنع اللغات. لهذا لم يكن إبداع البشر في صنع الأصوات؛ ولا إكساب جهازهم الصوتي القدرة علي إنتاج الأصوات؛ إنما كان في قدرتهم علي صنع كل هذه اللغات المتعددة من مادة واحدة يصدرها الجهاز الصوتي نفسه الذي لديهم جميعا، فالأمر يرجع إلي قدرات

(١) الخصائص لابن جني: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠، ج/١ ص٨

كامنة متعددة للمخ، منها القدرة على الإبداع اللغوي المستمر والمتجدد لدى كل البشر في لغاتهم لتصبح لهجات ثم لغات.

إشارة الحق سبحانه إلي جانب الإعجاز في اللغة:

أرجع الحق سبحانه وتعالى الأمر إلي أصله في قضية الإعجاز اللغوي الذي هو تعددها، فجعله آية من آيات إعجازه في خلقه، فقال: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾** [الروم: ٢٢].

إن الإعجاز الإلهي ليس في القدرة علي إصدار أصوات اللغة فحسب؛ ولكن في صنع لغات متعددة متنوعة منها، لهذا لم يقل سبحانه: ومن آياته اختلاف أصواتكم، لأن الصوت واحد في كل اللغات، وهو المادة الخام التي تُصنع منها اللغات، فلا اختلاف ولا إبداع في ذلك؛ فكل السيوف من الحديد وكل السيوف قواطع، لكن الإبداع في صنعها وتنوعها: سيف سام، سيف حاد، سيف غير سام، فكان إبداع البشر في تنوع لغاتهم، وتعددها ونموها وتطورها كل يوم؛ بصورة مستمرة إلى قيام الساعة، ولا يمكن مهما تنوعت وتعددت جهود عباقرة اللغة أن تصنع لغةً واحدةً لكل البشر؛ فلن ينجحوا، وستظل لغات البشر في تعددها الدائم إلي أن تقوم الساعة.

ألا يكفي هؤلاء ما يرونه كل يوم وكل ساعة من كلمات جديدة في اللغة الواحدة، بل أرجو أن يحصوا بدقة عدد اللهجات التي تظهر مع كل جيل في اللغة الواحدة، وكذلك عدد اللغات الحية والميتة. إنها قدرة الله وآية من آياته سبحانه التي زود بها المخ البشري؛ ليعدد ويغير ويبدل من لغته كل يوم، وذلك من خلال قدرته علي الخلق والإبداع التي لا حد لها في كل مجالات الحياة، وأهمها اللغة التي هي شغله الشاغل، فجعل القدرة علي الإبداع اللغوي في أمخاخ البشر جميعا، فكلهم يبدع في لغته، فتبارك الله أحسن الخالقين.

المحور الثاني: مفهوم اللغة عند المحدثين

بين العلماء المحدثون مفهومهم وتصورهم عن اللغة من خلال مناقشتهم لعدة قضايا لغوية؛ رأيت أن أعرض تلك القضايا وأناقشهم فيها؛ لأكوِّن صورة للغة لدى كل عالم علي حدة، فيبدو مفهومها عنده واضحا، ولأظهر تطور علاقة اللغة بالمخ لديه. وهم:

أ- مفهوم اللغة عند ج. فندريس:

يرى فندريس أن اللغة وسيلة اجتماعية تحقق التواصل بين البشر، فيقول "اللغة هي أداة الفكر ومساعدته، هي التي مكنت للإنسان من الشعور بذاته ومن الاتصال بأمثاله، وجعلت من الميسور تكوين الجماعات. ومن العسير أن تتصور حالة أولية للإنسان كان فيها محروما من مثل هذه الوسيلة الناجعة للعمل. فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود لغة منظمة، وما كان في وسعه أن يسير في طريق التطور دون اللغة"(١).

إن ما يلفت انتباهنا في تعريف فندريس اعتباره اللغة أداة الفكر، وهو ما نحاول مناقشته هنا، كيف تكون اللغة أداة الفكر ومصورته والمخرجة له من غياهب المخ؛ ليصير كلامنا منطوقا مسموعا، فلولا اللغة لما علمنا فيما يفكر الآخر، فأخرجت ما بداخله من شعور شخصي ذاتي، وحققت له التواصل مع غيره، فكون المجتمعات والقوميات وتطور بسبب هذه الوسيلة.

اللغة إذن ضرورة اجتماعية يفرضها وجود مجتمعات بشرية متحضرة. فقد نظر فندريس إلي الجانب العقلي في اللغة وعده أساسا في تعريفها.

ب- مفهوم اللغة عند جاك موشلار:

يقول جاك موشلار "اللغة ــ أولا وقبل كل شيء ــ تُعتبر علي الأرجح أداة لتمثيل المعرفة والمعلومة وإبلاغها."(٢) ويقول "ومع أن اللغة لا تختزل في نظام ترميزي شفاف للتواصل، فإن استعمالها وإنتاج الجمل وفهمها، كل ذلك يتطلب معارف غير لغوية وتستلزم عمليات استدلالية."(٣).

هذا المفهوم للغة يوضح رأي المذهب التداولي في نظرتهم للغة؛ فهي أداة لإظهار المعارف التي في رأس المتكلم لإبلاغها المتلقي فيتحقق تواصلهما. وهنا نجد تصوره للغة ينحو نحو الجانب العقلي في فهم اللغة؛ وكيفية تمثيل اللغة كمعرفة في الفضاء الذهني للمتكلم والمتلقي. لهذا لا يمكن فهم اللغة من خلال صفة واحدة؛ أنها مجرد رموز

---

(١) اللغة : ج . فندريس، تر/ محمد القصاص وعبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ١٩٥٦م. ص٢٤

(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل:٢٠

(٣) التداولية اليوم علم جديد في التواصل:٢٠

صوتية تحقق التواصل فحسب، إنها تحقق التواصل بأصوات لغوية رمزية ووسائل غير لغوية، يتعاونان معا لتحقيق التواصل. وهذا فهم أوسع وأعمق لحقيقة اللغة كوسيلة تواصلية.

ج- مفهوم اللغة عند ديريك بيكرتون:

إن مفهوم اللغة عند بيكرتون يتسع ليشمل مضامين كثيرة، فهو يرى أن اللغة البشرية تتميز بخصائص تختلف عن لغة الحيوان، وقد تمحور حديثه عن مفهومه عن اللغة حول فكرة المقابلة بين لغة الإنسان والحيوان، التي انطلق منها بعده تيرنس دبليو ديكون مع تطوير وتعديل فيها، فشمل حديثه مجموعة آراء تبين أن اللغة داخلة علي المخ البشري، وليست ملكة فطرية موجودة سلفا لدى البشر، في مقابل الأصوات التي تصدر منه بصورة غريزية فطرية والتي تظهر في شكل صيحات النداء والاستغاثة لدى كل البشر، ليتفاعل بها مع مجتمعه، وقابل ذلك بالأصوات التي تصدر من الحيوان، لكنه انطلق من فكرة داروين حول تطور الكائنات الحية؛ ثم يأتي بعدهما ديكون ليسير علي هذا الفكر في تفسيره للغة ومفهومه عنها، فهو دائم المقارنة بين لغة البشر ولغة القردة علي اعتبار أنها الطبقة التي قبلنا في التطور.

وقد بيَّن مفهومه عن اللغة من خلال عدة قضايا أهمها:

أ) وظيفة اللغة:

ليس التواصل الوظيفة الوحيدة للغة، يقول بيكرتون "أما لغة الإنسان فتتمتع بقدرات إضافية. وسوف نرى في الفصول اللاحقة بعض الحالات التي تستخدم فيها اللغة في تخزين المعلومات أو عمليات التفكير، إلا أن وظائف اللغة لا تقف عند هذا الحد فالمرء علي سبيل المثال لا يستطيع التفكير باستخدام لغة الإشارات، ولا يستطيع تخزين المعلومات باستعمال نظم التواصل عند الحيوان ... يستنتج الناس خطأ أن اللغة تساوي التواصل"[1].

(١) اللغة وسلوك الإنسان: ديريك بيكرتون ترجمة/ محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود٢٠٠١م ص٢

هذا القول يعطي صورة أوسع اللغة وعملها؛ ويفتح المجال للنظر إليها من زوايا أخرى؛ كاستخداماتها في التفكير وتخزين المعلومات، وبيان دورها في العمليات العقلية المختلفة. لهذا نجده يضيف قائلا عنها "أما اللغة الإنسانية فلا تقف عند حدود التعبير عن رغبة الفرد أو مشاعره، ولا عند تأثيره في الآخرين ... بل تعبر أيضا عن كم لا نهاية له من المعلومات التي لا تقتصر علي أرقام الهواتف والمهن والأذواق في اختيار الموسيقى وألوان الطعام، بل تشمل أيضا حجم الكرة الأرضية (الحقيقي) وعمر الكون (التقديري) والمبادئ الأساسية في التسوق ... وهذه جميعا أشياء لا علاقة لها بما يريد المتكلم أو الكاتب في لحظة الكلام أو الكتابة"[1].

إن تلك الأشياء التي خزنتها اللغة في مخ المتكلم ربما لا تكون حاضرة عندما يتكلم أو يكتب، لقد خرج بنا بيكرتون عن الحدود التي وضعها ابن جني للغة؛ بأنها وسيلة تواصل بين البشر لتحقيق أغراضهم، وإن كنت أري أن ابن جني كان يعني بقوله أغراضهم كل ما قاله بيكرتون من أشياء سماها ابن جني أغراضا وعددها بيكرتون، لكن بيكرتون أشار بصورة أدق إلي أشياء نحتاج الآن إلى فصل القول فيها وهي العمليات العقلية التي تسبق الكلام، وكذا التي ترافقه. إنه يدخل بنا إلي دور الدماغ في إنتاج اللغة.

ب) اللغة وتمثيل العالم:

يتجه بيكرتون إلي جانب آخر في مفهوم اللغة، وهو دورها في بناء أنساق لفهم العالم وتمثيله في المخ، وهي عمليات تسبق عملية الكلام، حيث تمثيل العالم الذي نعيش فيه ونتعايش معه؛ ويعد عنصرا أساسيا يبين فهمنا للغة ولقيمتها التواصلية، لذا نستدعي العالم الخارجي داخل عقولنا للتفكير فيه بسرعة فائقة. يقول بيكرتون "تلعب اللغة دورا هاما باعتبارها نظام تمثيل، وأقصد بهذا أنها صورة منظمة عن العالم ومرتبة بحيث يمكن تحديد عناصر المعلومات فيها بسرعة ويسر، ... لكن ما يسمي لغة لا يمكن أن يمثل العالم ولا بأي شكل من الأشكال، فلا لغة الإيماء ولا صيحات القردة أو حركاتها يمكنها أن تمثل العالم، إنها تمثل شعور الإنسان أو القردة في تلك اللحظة،

(١) اللغة وسلوك الإنسان: ص ٦

وهي بذلك تعبر عن رغباته ونواياه لا أكثر ولا أقل. فلا شيء غير اللغة يمثل العالم بأسره، ذلك العالم الذي يحس به المخلوق ويتفاعل معه ... إن التمثيل يسبق التواصل من الناحية المنطقية. فكيف نستطيع أن نعبر عن شيء إذا لم نملك القدرة علي تمثيله أولا، فبدون هذه القدرة لا نستطيع توفير الرموز الضرورية للتعبير عنها."[1]

إنه يلقي الضوء علي جانب ضروري في اللغة؛ وهو قدرتها علي تمثيل العالم الذي نراه، ولكنه يضيف إليه جانبا آخر وهو الإدراك. فاللغة تصور لما يدركه المتكلم ويحسه. ويقصد بالتمثيل الذهني للأشياء بناء صورة في المخ عنها، حتى لو كانت معاني مجردة، يتم تخزينها في الذهن ويتم استدعاؤها عند التواصل؛ فيصبح التمثيل سابقا للتواصل، والتمثيل يمكن أن تسبقه مرحلة التجريب (التجربة)، فيتفاعل مع الحدث قبل تخزينه، ليبني صورة ملموسة عنه بالتجربة التي هي تعايش مع الشيء؛ ثم يأتي التمثيل الذهني، ويتضح دور اللغة في تحقيق التواصل باستخدام التمثيل المخزن بالدماغ نتيجة التجربة.

ج) القدرات اللغوية:

من بين مفاهيم بيكرتون عن اللغة أنها تُكسب الإنسان قدرة دقيقة علي التعبير أكثر من سائر المخلوقات، ليعبر عن مشاعره وقصده؛ وهي من القدرات التي يتمتع بها البشر وحدهم، يقول "عندما تعبر اللغة عن رغبتنا أو حاجتنا أو مشاعرنا نراها تفعل ذلك بطريقة أدق بكثير من نظم التواصل الأخرى عند الحيوان. ويبدو أن معظم الحيوانات هي في المستوى الأول من قدرة التعبير عن القصد ... أما بنو البشر فيستطيعون تحقيق مستويات متقدمة تصل إلي المستوى الثالث أو أكثر من قدرة التعبير عن القصد، لأنهم قادرون علي قول أشياء أو التفكير بأشياء مثل "أريد فلانا أن يظن أنني أريده أن يصعد الشجرة، ولأنه مشاكس فإنه لن يفعل إذا ظن أنني أريده أن يصعد الشجرة، وهذا ما أريده في الواقع." [2]

إنني أختلف مع بيكرتون عندما يربط بين إدراك الإنسان للأشياء وأحاسيسه ومشاعره؛ مقارنا بينه وبين الحيوان ولغته في تعبيره عن أغراضه ومشاعره، حيث ينفي

---

(١) اللغة وسلوك الإنسان: ١٣

(٢) اللغة وسلوك الإنسان : ٧

عنه تلك المشاعر؛ فهؤلاء المخلوقات لديها قدرة كبيرة علي التعبير عن مشاعرها؛ كل ما هناك أننا لا نفهم لغتها، ولا نعرف طريقة تعبيرها عن مشاعرها؛ وإن كنَّا لاحظناها. إن عدم فهمنا لها لا يعني عدم وجودها، فإذا لم تبصر الشمس فلا يعني أنها لم تشرق.

د- مفهوم اللغة عند تيرنس دبليو - ديكون:

عرض ديكون مفهومه عن اللغة في كتابه "الإنسان. اللغة. الرمز" فهي سلوك:

اللغة سلوك يُحْدث التكيف في المخ:

إن مفهوم ديكون حول اللغة يدور في فلك أنها سلوك متكيف في المخ. يقول: "إن اللغة البشرية واحدة من أبرز سلوكيات التكيف تميزا علي ظهر الكوكب، ... إن مثل هذه النقلة الكبيرة في التكيف السلوكي تركت آثارها في التشريح البشري، ويتجلى هذا واضحا حتى في المظاهر السطحية، إذ إننا نحن البشر لنا مخ كبير علي نحو فريد وجهاز صوتي معدل علي نحو استثنائي ... وعلي الرغم من ذلك، تفيد بأن العلاقات البنيوية والوظيفية التي تشكل أساسا لهذه التلازمات السطحية تبدو لنا وكأنها خاصية مميزة لنا وذات فاعلية."[1]

يرى ديكون أن اللغة سلوك يسعي لإحداث التكيف بين الفرد ومجتمعه، ويرجع هذا إلي البناء التشريحي البشري من مخ كبير وجهاز صوتي معدل، مما يميز النوع البشري عما سواه، ويري أن اختلاف القدرات المعرفية بين البشر وغيرهم من المخلوقات تتمركز في تنظيم المخ وفي هياكل المخ. والفرق المعرفي اللغوي باعتبار اللغة نوعا من المعرفة؛ يرجع إلي بناء وتنظيم المخ البشري الذي يختلف عن غيره، يقول ديكون "نحن نبحث عن المنطق الذي يربط بين وظائف الإدراك المعرفي وتنظيم المخ، وتأسيسا علي أن الشروط الذهنية الفريدة للغة منعكسة في الفروق التشريحية العصبية الفريدة، فإننا قد نجد مثالا واضحا للغاية يوضح كيف حددت الطبيعة معالم الفروق المعرفية في فوارق بنية المخ."[2] إنه يتساءل عن السبب المنطقي الذي يربط بين وظائف الإدراك المعرفي التي تمكن الإنسان من إدراك المعارف المختلفة وتنظيم المخ،

---

(١) الإنسان .. اللغة .. الرمز: ٣٣

(٢) الإنسان .. اللغة .. الرمز: ٣٣

كيف يؤدي المخ بتنظيمه الحالي وظيفة إدراك المعرفة وتسجيلها داخله وتفاعله معها؟ فيجيب موضحا سبب تميز اللغة البشرية عما سواها بأنها تنظم المخ البشري وتصمم هياكله. وهذه صفة طبيعية لدى المخ البشري؛ فالقدرات المعرفية التي لدى البشر هي التي تمكنهم من الإبداع اللغوي وغير اللغوي وعمارة الأرض. إنه يوجه أنظارنا نحو المخ وتشريحه وتنظيمه بشكل متلائم مع طبيعة اللغة البشرية المبدعة التي لا تحقق التواصل بينهم فحسب، بل تمكنهم من الإبداع في شتي الأمور. هذا النهج سار عليه قبله بيكرتون الذي يري أن وظيفة اللغة ليست التواصل فحسب، وهنا نجد أنهما يفتحان مجالا أكبر لدراسة اللغة بعمق كبير، فقضية تنظيم اللغة في المخ البشري تعني دراسة العمليات العقلية التي تسبق الكلام، وأن البناء الفطري للمخ البشري هو ما سمح له بهذه القدرة المعرفية المتميز التي بفضلها امتلاك الإنسان اللغة.

هـــ- مفهوم اللغة عند راي جاكندوف:

يقدم جاكندوف مفهومه عند اللغة بهذا السؤال "ما هي اللغة؟ يمكن فهم مصطلح اللغة في معناه الواسع علي أنه يشمل تقريبا أي نسق منظم من أنظمة التواصل الحيوانية، إلي لغات الكمبيوتر"[1].

اللغة عنده هي أي نظم تحقق التواصل بين الناس بصورة صوتية منظمة، لهذا فهي تحتاج إلي شخصين متكلم ومخاطب ليتم التواصل بينهما، وهذا التواصل ينطلق من مركز التفكير فيهما؛ وهو المخ، لذا وجب تحليل العلاقة بينهما (اللغة والمخ)، وقد فنَّد جاكندوف هذه العلاقة بصورة مبسطة. بتحليل أسس العلاقة أن اللغة إقران بين العبارة المنطوقة ومضمونها من خلال "عملية الترميز الصوتي" بوضع رمز للشيء، ليصبح اسمه.

بذلك نكون قد صنعنا الكلمة التي نكوِّنُ منها الجملة، ثم العبارة التي نرسلها كرسائل من المتكلم إلي المتلقي الذي يعرفها بمقابلتها بكلمات مماثلة لها في ذاكرته ليفهم كلام المتكلم، فإذا تمت عملية الفهم علي هذا الوجه بنجاح تمت عملية الكلام؛ وأصبح للغة وجود فعلي؛ من خلال عناصر هي: مرسل/ مستقبل /رسالة. يقول

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات : ١١٩

جاكندوف: "في مقاربة لربط اللغة بخصائص العقل، نجد أن جوهر اللغة هو **إقران** العبارات بالرسائل. فالعبارات هي الجانب الخارجي أو العام للغة: الأقوال، الكتابات، أو الإيماءات التي يبتدعها المتكلم الذي يمكن أن يفهمه المخاطب بشكل طبيعي. والرسائل الجانب الداخلي أو الخاص للغة، هي الأفكار (أو المفاهيم أو المعاني) التي يرغب المتكلم أن يبلغها إلي المرسل إليه عن طريق العبارة المرتبطة بها."[1]

لو أن مفهومنا عن اللغة كان على الأساس من رأي جاكندوف؛ كعملية تنظيمية بين المتكلم والمستمع، فسوف ندرك أنها في حقيقتها أصوات مُرمَّزة تنطلق من مخ المتكلم؛ لتعبر عن أفكاره إلي السامع الذي يقوم بحل شفرتها وفهم مقصده منها، ويظهر عمق فهم جاكندوف للقضية في كلمة (إقران) التي تعني الربط بين الصوت والعبارة، والمقصود بالعبارة التي هي سلسلة صوتية معني العبارة، يتم ذلك من خلال عملية ترميز صوتية؛ ويؤكد جاكندوف علي هذا الفهم لحقيقة اللغة، بل إنه يجعل هذه الفكرة جوهر اللغة وحقيقتها، فاللغة في مجملها عملية ربط بين رسالة صوتية منطوقة وبين معناها، هذه الرسالة تحمل عدة رموز صوتية، تصدر من المتكلم إلي السامع الذي يتلقاها كرسالة صوتية مُرمَّزة في صورة عبارة منطوقة، إلي السامع الذي يقوم بحل شفرتها الصوتية بما لديه من رموز صوتية مطابقة لها ومخزنة لديه؛ فهي مرجعه لفهم الرسالة الصوتية الواصلة إليه فيحل شفرتها.

الخصائص العامة للغة البشر:

إضافة إلي بيان مفهوم اللغة عند جاكندوف؛ نجده يقدم لنا مجموعة خصائص عامة تشمل كل اللغات، مما يعني إيمانه بفكرة عمومة اللغة وأنها نسيج واحد في كل اللغات:

١) التعميم والعموميات في بناء اللغات:

يقول جاكندوف "عموميات اللغة في علم الأصوات، وعلم بناء الكلمة أو المورفولوجيا، علم بناء الجمل، وتركيبة المعجم"[2].

المقصود بالعموميات في اللغة أي الأشياء العامة التي توجد في كل لغات البشر كحكم عام يشملها كلها، وهي خصائص ثابتة في كل ما يطلق عليه لغة لدى البشر:

---

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات : ١١٩

(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات : ١٢٩

أ- الأصوات:كل اللغات أصوات؛ واللغة التي لا تستخدم الأصوات ليست لغة مطلقا.

ب- المورفولوجيا: كل اللغات تصنع من أصواتها وحدات مورفيمية تبني بها جملها.

ج- الجمل: كل اللغات تبني من مورفيماتها جملا ذات معني.

د- المعجم:كل اللغات لها معاجم خاصة بها؛ تخزن وتحفظ فيها كلماتها مقرونة بمعانيها.

٢) توقيت اكتساب الطفل للغة:

يقول جاكندوف "إن التوقيت الشامل لاكتساب الطفل للغة"[١]. أي أن توقيت اكتساب كل أطفال العالم لغتهم يتم في مرحلة عمرية واحدة، لماذا؟ لأن طبيعة بنائهم البيولوجي واحدة، فهم يمرون بمراحل النمو البيولوجية نفسها، ويتعرضون لعمليات بيولوجية واحدة. لهذا كان من الطبيعي أن يتفق توقيت اكتساب الأطفال للغة معا بصورة شاملة.

٣) القدرة الخاصة للغة البشرية:

اللغة البشرية لها قدرات خاصة لا توجد في غيرها من لغات المخلوقات؛ من حيث عدد مفرداتها وتعقيدها النحوي، حتى لو حاولنا تعليم المخلوقات الأخرى لغتنا. لأننا:

أ- لا نعلم على وجه الدقة لغة المخلوقات الأخرى؛ أصواتها مفرداتها تركيبها دلالتها.

ب- لأن بناء لغتنا البشرية به قدرات لغوية خاصة يجعلها متميزة عن اللغات الأخرى.

ج- وجود الحبسة لدى بعض البشر؛ دون إضرار بقدرتهم المعرفية دليل علي تميز الدماغ البشري التي تشبه الحاسوب، لكنها تتميز بتلك الخاصية، وهي استمرار عمل الدماغ، بأجهزتها ومراكزها المختلفة (بصر. سمع. شم) علي

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات : ١٢٩

الرغم من فقدها القدرة علي الكلام. لذا نجد من فقد القدرة علي الكلام كالأبكم، أو مرضي الكلام؛ يفكر ويبدع بلا لغة.

و- مفهوم اللغة عند تشومسكي[1]:

١- ما اللغة ؟

يذكر تشومسكي مفهومه عن اللغة في كتابه "أي نوع من المخلوقات نحن؟" فيبدأ حديثه بهذا السؤال الذي طرحه تشومسكي: ما اللغة؟ إنه يريد أن يقدم لنا مفهومه عن اللغة وطبيعتها من خلال سؤال يبدو بسيطا لدينا، لكنه له ما وراءه عنده. لقد جعله عنوانا لفصل من كتابه. يقول "لكن ثمَّ أسبابا أكثر عمقا بكثير لمحاولة تحديد ما اللغة بوضوح، وهي أسباب تتصل مباشرة بالسؤال عن أي نوع من المخلوقات نحن."[2]

إن إدراك تشومسكي لمفهوم اللغة جاء من تأثره بفكر دارون؛ فيري اللغة "مجموعة قدرات يمتلكها البشر دون غيرهم" وهي التي مكنتهم من صنع لغاتهم؛ وجعلتهم كبشر متميزين عن سائر الخلائق. وسأعرض هذه القدرات في الفقرة الآتية التي يري كل من تشومسكي ودارون أنها الشيء الذي مكَّن الإنسان من الكلام وإنتاج اللغةً. إن هذا الأمر يفتح الباب للتفكير في أمور أعمق مما كنا نظنها عن اللغة وماهيتها؛ فهو يربط مفهوم اللغة وماهيتها بعدة قدرات محددة لدى النوع البشري كله. فاللغة تنطلق من هناك حيث التكوين والبناء الفسيولوجي الخاص بالبشر، والذي يُظهر قدراتهم المتميزة عن كل الخلائق، فسر اللغة البشرية وإعجازها عنده ينطلق من التكوين الأحيائي للمخ.

٢- "الخصيصة الأساس والتوليد":

يشير تشومسكي إلي "أن أكثر خصائص اللغة الأساسية، وهو ما سأشير إليه بالخصيصة الأساس وحسب. وهي تعني أن كل لغة توفر سلَّة من التعبيرات غير المحددة

---

(١) رجعتُ في بيان مفهوم اللغة عند تشومسكي إلي أحدث كتبه، وهو "أي نوع من المخلوقات نحن؟" الذي ألفه ٢٠١٦م، لأنه يحوي خلاصة فكره عن اللغة وآخر ما توصل إليه في نظريته التي يطور فيها دائما.

(٢) أي نوع من المخلوقات نحن؟: نعوم تشومسكي تر/ حمزة المزيني، دار كنوز المعرفة الأردن، ٢٠١٧ص٥٤

المبنية هرميا التي تؤول عند واجهتين هما الواجهة الإحساسية الحركية للإظهار وواجهة التصور ـــ القصدي للعمليات الذهنية ... فتشمل كل لغة ... علي إجراء حوسبي يفي بالخصيصة الأساس." [1]

هذا النص يعد شرحا لمفهومه عن اللغة الذي ذكره آنفا؛ إنها نتيجة قدرة بيولوجية أحيائية داخل المخ، جاءت ضمن خلقه وتكوينه الطبيعي، ذلك التكوين الذي أوجد داخل مخه سلة من التعبيرات، فتصور أن لدى كل لغة تلك السلة، تُؤول أو تُستدعي في حالة إثارة الإحساس الحركي لديه؛ وفي حالة التصور والتفكير المتعمد من ذهنه بأن يفكر في كذا الآن، لهذا استوجب الأمر وجود حاسوب في مخه ليقوم بهذا الإجراء أي بعمل الخصيصة الأساس؛ فيمد الفرد في الحالتين بالتعبيرات المناسبة من سلة التعبيرات.

إن حالة التصور الذهني تحدث بقصد وتعمد منه، فيقصد ويتعمد فعل واختيار هذا الشيء والتفكير فيه وتصوره، فيختار من السلة التعبير المناسب لموقفه الآني، فالخصيصة الأساس موجودة في كل لغة تستدعي بها ما لديها من تعبيرات في سلتها.

ويشير تشومسكي إلي أن الخصيصة الأساس هي أساس عملية توليد، يقول "فالخصيصة الأساس، ...، توليد لسلة غير محددة من التعبيرات المبنية هرميا توصل بالواجهة المفهومية ـــ القصدية، موفرة نوعا من لغة التفكير ـــ بل من المحتمل جدا أن تكون لغة التفكير، هذه الوحيدة."[2]

إنه يري أن هذه الخصيصة الأساس بما لديها من سلة التعبيرات؛ هي من يمد الفرد بالتعبيرات المناسبة لحالته الآنية، عند إثارة إحساس حركي أو تصوري، فتمده السلة بالتعبيرات المناسبة التي تولدها من تعبيرات موجودة سلفا في السلة، فتصبح السلة مخزن التعبيرات والآلة التي تولد التعبيرات الجديدة، فهي أساس عملية التوليد التي لدى البشر.

لكن الأمر غير ذلك فكل ما ذكره صحيح، من وجود سلة تعبيرات لدى كل لغة وكل فرد من أبناء اللغة تتمثل في ذاكرته ومعجمه الذهني، لكن هذا التوليد والتطوير

---

(١) أي نوع من المخلوقات نحن؟:٥٥

(٢) أي نوع من المخلوقات نحن؟: ٦٣ ، ٦٤

في التعبيرات التي بسلته آت من القدرة الإبداعية التي داخل المخ البشري؛ فهي من فعل هذا كله. وقد مكنته من أن يبدع في لغته الجديد ويبدع الجديد من التعبيرات مستعينا بما لديه من مخزون في مكتره من تعبيرات قديمة؛ يعيد ترتيبها ويولد تعبيرات جديدة منها.

سر تعدد اللغات:

يمكننا اعتبار الخصيصة الأساس علي هذا النحو الذي ذكره تشومسكي؛ آلة التوليد اللغوي بالدماغ؛ ويمكن اعتبارها سر تعدد اللغة وتشعبها إلي لغات. فاللغة تصنع من سلة التعبيرات والجمل الخاصة بها عددا غير محدد من التعبيرات الجديدة وتوليدها في كل لحظة في مخ المتكلم بتلك الآلة، ومن خلال عملية التفكير التي تجمع فيها بين التعبيرات والواجهة المفهومية القصدية لإنتاج لغة التفكير، فتصبح هي سر تعدد اللغة الواحدة إلي اللغات. نستخلص مما سبق أن الخصيصة الأساس تصنع من اللغة لغات متعددة؛ مما جعله يؤكد علي اعتبار اللغة أداة للتفكير بقوله "وإذا كان هذا المسار من التعليل صحيحا عموما، فثمَّ سبب جيد للعودة إلي تصور تقليدي للغة علي أنها أداة للتفكير"[١].

وهذا الرأي فيه نظر، فالمرء لا يفكر لأنه يمتلك لغة، ولكن لأن لديه القدرة الفطرية علي التفكير، أما اللغة فوسيلة يستخدمها المرء ليفكر بها بينه وبين نفسه، وقد يستعيض عنها بوسيلة أخرى إذا لم يكتسب لغة في حياته كالأبكم؛ فهو يستعيض عن اللغة بوسيلة تعبير أخرى، وهي الإشارات التي يتواصل بها مع مجتمعه؛ ليفكر بها مع نفسه.

٣- وظيفة اللغة عنده:

يرى تشومسكي أن اللغة لها وظائف أخرى غير التواصل يقول :"إن القول بأن وظيفة اللغة هي التواصل ليس أكثر من مذهبية واضحة." [٢] فالقول: إن وظيفة اللغة هي التواصل لا يزيد عن كونه رأي يعود لبعض المذاهب اللغوية. ثم يذكر تصوره العام عن اللغة بقوله "ومن الغريب في المقام الأول الظن بأن للغة هدفا. ذلك أن

---

(١) أي نوع من المخلوقات نحن؟:٦٤

(٢) أي نوع من المخلوقات نحن؟ :٦٥

اللغات ليست أدوات صممها البشر، بل أشياء إحيائية كالإبصار ونظام المناعة والهضم. ويقال أحيانا إن لهذه الأعضاء وظائف من أجل بعض الأغراض. لكن هذه الفكرة أبعد ما يكون عن الوضوح"[١]

هذا قول فيه نظر؛ فهو يرفض القول بأن اللغة هدف، فاللغات لم يصنعها البشر، فهي أشياء فطرية موجودة بالفطرة في أصل خلق الإنسان كالبصر ونظام المناعة والهضم، وهذا ليس صحيحا للأسباب الآتية:

١ــ اللغة هدف ولا يمكن الظن بأنها ليست هدفا فالمرء يصنعها لهدف التواصل بها.

٢ــ لا يوجد في الجسد جزء أحيائي مختص باللغة، كالعين للإبصار والرجل للمشي.

٣ــ إن اللغة من تصميم البشر، فهم من يبدعون ويطورون فيها؛ بهدف التواصل بينهم. لهذا نقول: كيف لا تكون اللغة هدفا يسعي من خلاله المتكلم إلي التواصل مع السامع! إن ما يتكلم عنه تشومسكي هنا ليس اللغة، بل الجهاز النطقي الذي له وظائف حيوية أخرى غير إصدار الصوت؛ لهذا يمكن أن ننسب إنتاج اللغة إلي أعضاء النطق؛ لكن اللغة في ذاتها مهارة مكتسبة بالتعلم كسائر المهارات، كحرفة الكتابة؛ فلا يمكن القول: إن الكتابة هي اليد؛ بل الكتابة حرفة مكتسبة وآلتها هي اليد.

٤– أنوع اللغة عند تشومسكي:

يذكر تشومسكي مفهومه عن اللغة أنها في حقيقتها نوعان، هما: اللغة التي في الدماغ اللغة (د) كقدرة علي الكلام لدي كل إنسان، وعملية عقلية تحدث داخل الدماغ لإنتاج اللغة تسبق النطق بها، واللغة الثانية وهي اللغة المنطوقة (ط) وهي الكلام الذي ينطق به الفرد. فقال عنهما:

أ– **اللغة (د):** "كل لغة هي ما يطلق عليه بالمصطلحات التقنية اللغة (د) (I.language) وتعني I (د) داخلية وفردية وإجرائية، أي أننا نهتم باكتشاف الإجراء الحوسبي الفعلي، ... أي أننا نهتم بما يولده الإجراء توليدا قويا بالمصطلحات التقنية ..."[٢]

---

(١) أي نوع من المخلوقات نحن؟ :٦٥

(٢) أي نوع من المخلوقات نحن؟ :٥٦

ب- **اللغة (ط)**: E.language وتعني اللغة المظهرة، تلك التي يري كثير من الباحثين - ولست منهم - أنها تمثل مدونة من المادة اللغوية، أو هي مجموعة غير نهائية مولدة توليدا ضعيفا."[١].

اللغة (د) هي اللغة الداخلية الفردية التي تُصْنع داخلنا وفق إجراءات وآليات معينة، كعمل الحاسوب الذي يولد برامج مختلفة. واللغة الداخلية تقوم بتوليد جمل صحيحة من مكترنا، فاللغة ليست الكلمات التي ننطق بها، بل تسبقها لغة داخلنا يتم إنتاجها وفق إجراءات حاسوبية لتوليدها، ثم تتحول إلي نوع اللغة الثانية وهي اللغة المظهرة أي اللغة التي تظهر في نطقنا الفعلي، هذا ما أطلق عليه مصطلح البنية العميقة والبنية السطحية. إن هذا التصور للغة ينطلق من مفهوم التقسيم الثنائي للغة الذي بدأه دي سوسير ففرق بين اللغة والكلام.

ويقول عن اللغة (د) "وسوف أقتصر اهتمامي هنا علي اللغة (د) وهي خصيصة أحيائية عند البشر، ومكون فرعي للدماغ (إلي حد بعيد)، وعضو في الذهن / الدماغ بالمعنى التقريبي الذي يستعمل فيه مصطلح عضو في علم الأحياء. وأعني بالدهن الدماغ منظورا إليه عند مستوى ما من التجريد. وتسمي هذه المقاربة إطار اللسانيات الأحيائية أحيانا."[٢]

إن حديثه عن اللغة (د) جاء في إطار يبين تصوره عن اللغة باعتبارها خصيصة أحيائية؛ تخضع لخصائص الكائن الحي؛ فهو يوجهنا إلي دراسة اللغة في الذهن واللغة الذهنية. لكنه جعل تلك اللغة مكونا فرعيا للدماغ؛ لكن اللغة ليست عضوا ومكونا فرعيا للدماغ؛ ولا يوجد مكان مستقل في المخ أو جزء خاص باللغة فيه - كما يري تشومسكي – لماذا ؟ لأن اللغة مهارة مكتسبة ومخزنة في المكتر الخاص باللغة (التشابكات العصبية) كسائر الحرف والخبرات التي يكتسبها الإنسان في حياته، مما يجعل تصور تشومسكي مرفوضا فعليا، فلا يوجد في الدماغ مكان للخبرة والمهارات؛ ولا يوجد مكان خاص باللغة كما ذكر تشومسكي.

---

(١) أي نوع من المخلوقات نحن؟ :٥٦

(٢) أي نوع من المخلوقات نحن؟ :٥٦

ولكننا إذا أخذنا قوله علي أنه يقصد أن اللغة تخضع لقوانين الكائن الحي (علم الأحياء) بالنظر إلي دور الخلية العصبية في معالجة اللغة فكلامه يصبح مقبولا.

خلاصة مفهوم اللغة عند علماء اللغة:

بعد هذه الجولة مع العلماء حول مفهوم اللغة؛ يمكننا أن نخرج بنتائج عامة تنطبق علي اللغات، ونتائج تخص محاور محددة تبين مفهوم اللغة عندهم، لكنها في مجملها تمثل رأيهم الشخصي حول اللغة. وستأتي فيما بعد دراسة تحليلية للغة في محاور مختلفة.

أولا: محاور عامة

١ــ محور مفهوم اللغة: مفهوم اللغة عندهم يدور حول فهم خاص بكل عالم؛ يتمحور حوله حسب ما وصل إليه الفكر اللغوي في عصره، وما وصل إليه اجتهاد هذا العالم وعمق فهمه للغة.

٢ــ محور وظيفة اللغة: تعددت وظيفة اللغة لدى كل عالم؛ مما يبين مدى دقة ملاحظتهم لوظائف للغة.

٣ــ محور القدرات اللغوية: بحث العلماء القدرات الكامنة لدى البشر التي مكنتهم من الكلام. هذه القدرات بعضها فطري ولد به الفرد؛ وأهمها القدرة علي التعلم، وبعضها مكتسب بالتعلم كاللغة.

ثانيا: نتائج عامة

لقد وصلنا بعد عرض مفهوم اللغة عند أهم علماء اللغة إلي نتائج تخص جانبا غير المنظور من اللغة وهو (المخ) لنبين أنهم أدركوا العلاقة بين اللغة والمخ وأهمها أن:

١- ما يصح أن نسميه لغة هو ما يصدر عن الإنسان من أصوات وظفها مخه للتواصل.

٢- التفكير يرتبط باللغة، وهي مظهره للوجود، لكن ليس صحيحا ألا تفكير بدون لغة.

٣- هناك إشارة ضمنية للعمليات العقلية التي تسبق وجود اللغة؛ كتفكير وترتيب وتنظيم.

٤- اللغة تحقق التواصل بين الأدمغة، والفكر قيد بأصحابه، واللغة تنقله بينهم. وهنا تنشأ المجتمعات لتتلاقي العقول حول فكر واحد ولغة واحدة يتواصلون بها معا.

٥- اللغة في حقيقتها رمز صوتي يصنعه المتكلم للتواصل مع أقرانه، وهذا قمة فهم اللغة.

٦- اللغة ليست شرطا للتفكير، وإن خالفنا ديكون في ذلك؛ فالأبكم يفكر ويعمل.

٧- اللغة ليست فطرية بل مكتسبة والتعلم قدرة فطرية، علي الرغم من رأي ديكون.

٨- الأطفال يأتون إلي العالم مزودين بقدرة فطرية علي التعلم مما يمكنهم من تعلم لغتهم.

٩- أمخاخ البشر أتت للعالم ومعها القدرة علي اكتساب كل اللغات بالقدرة علي التعلم.

١٠- اللغة تتطور بتطور الأمخاخ التي اكتسبتها ودونتها بها، فتطور المخ المبدع هو الأصل.